الأَثر الأُوروبيّ في الفكر العربي الحديث

قراءة في كتابات المستشرق البرت حوراني

محمود صالح سعيد *

تأريخ التقديم: 2022/10/4 تأريخ القبول: 2022/10/15

المستخلص:

يناقش هذا البحث موضوع الأَثر الأُوروبيّ في الفكر العربي الحديث بقراءة في كتابا المستشرق البريطاني البرت حوراني (1915-1993) الذي استطاع بمجموعة من مؤلفاته أَن يرهن على قيمة الأَثر الأُوروبيّ في الفكر العربي الحديث وصياغة أَبرز معالمه، وفي هذا البحث محاولة لتسليط الضوء على أبرز المحطات التي تناولها حوراني بكتاباته في رصد الأَثر الأُوروبيّ على الفكر العربي الحديث ومشروع النهضة العربية الحديثة التي قادها نخبة من رجال الفكر والسياسية والعلم واللغة والمعرفة بالاعتماد على أَبرز مؤلفاته في هذا الشأن الَّتي لا تزال تعد واحدة من أَبرز المؤلَّفات التي تناولت الفكر العربي الحديث وطبيعة التحولات الاجتماعية التي احدثها الفكر الأُوروبيّ في التاريخ العربي الحديث.

الكلمات المفتاحية: البرت حوراني، الفكر العربي الحديث، الأَثر الأُوروبيّ، النهضة العربية الحديثة.

أولاً : الخلفية التاريخية والمعرفية للمستشرق البرت حوراني:

ولد البرت حبيب حوراني في 31 آذار 1915 في مانشستر في المملكة المتحدة وهو مؤرخ انكليزي من أصل لبناني تخصص بتاريخ العرب الحديث، درس في الكلية المجدلية وهي كلية تابعة إِلى جامعة أُوكسفورد ([1])، درس البرت حوراني

* أُستاذ/قسم التاريخ/كلية الآداب/جامعة الموصل.

(1) اسست الكلية المجدلية سنة 1447م مؤسسها وليم واينفلت وهي من اقدم الكليات في المملكة المتحد وخرجت الالاف من الطلبة في شتى جوانب المعرفة والعلوم ..

على المستشرق البريطاني هاملتون جب وبعد تخرجه درّس في جامعة هارفرد والجامعة الأَمريكية في بيروت وجامعة شيكاغو وجامعة بنسلفانيا وهي جامعات أَمريكية تعد في مقدمة الجامعات العالمية وبالتالي فإنَّ أَهمية هذا الشخصية زادت بالجامعات التي حاضر فيها واطلع على ما تحتويه من تطورات على صعيد البحث العلمي التاريخي بشكل خاص ([1]).

كان والده فضلوا عيسى حوراني قد هاجر مع زوجته سمية الراسي من بلدة مرجعيون في جنوب لبنان وبعد ولادة البرت في بريطانيا سنة 1915 اعتنق المذهب الكاثوليكي عند البلوغ بعدما كان على المذهب الارثوذكسي اليعقوبي التقليدي([2]) .

درس حوراني في الكلية المجدلية كما أَسلفنا الفلسفة والسياسة والاقتصاد والتاريخ وتخرج منها سنة 1936 وكان الأَوّل على دفعته، التحق بعدها في الجامعة الأَمريكية ببيروت وهناد درّس العلوم السياسية والتاريخ للمدة من 1937-1939 ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية (1939-1945م) عاد حوراني إِلى بريطانيا وعمل هناك في وزارة الخارجية ثم التحق بالمكتب العربي، كما عمل استاذاً لتاريخ الشرق الأَوسط الحديث في جامعة أُوكسفورد حتى تقاعده عام 1979م .

وقد أَصدر حوراني مجموعة من المؤلفات الكبيرة التي عكست رؤيته وبيئته الإِنكليزية نحو التاريخ العربي الحديث ومن اشهر كتبه : الفكر العربي في عصر النهضة 1798-1939 صدر سنة 1962 وترجم إِلى العربية عام 1977 من قبل دار النهار وترجمه كريم عزقول ؛ كما أَصدر البرت حوراني كتاب آخر سنة 1991 بعنوان : تاريخ الشعوب العربية الَّذي كان بمثابة خلاصة تجربته الفكرية والتاريخية تجاه التاريخ العربي، كما أَصدر سنة 1946 كتاب : سوريا ولبنان وكتاب : الاقليات في العالم العربي الذي نشر سنة 1947 وكتاب الإِسلام في الفكر الأُوربي، وبقراءة

---

(1)سيار الجميل، " في ذكرى البروفسور ألبرت حوراني العاشرة: رجـــل -أقــلــيــات الــشــرق الأوســط" مجلة الحوار المتمدن-العدد: 717 - 2004 / 1 / 18 مقالة منشورة على الرابط :

https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp

(2) عيسى فتوح، الموسوعة العربية، (بيروت : 2016)،

سريعة لبيعة المؤلفات التي تناولها كان الإسلام والتاريخ العربي يجسد محور اهتماماته الفكرية لذلك استطاع من تقديم رؤية معمقة للموضوع وفحص طبيعة الحياة الفكرية فيها مركزاً بالدرجة الاساس على التأثير الأُوربي في هذا الفكر والمجتمع .

عاش البرت 78 سنة إذ توفي سنة 1993م، وكانت حياته حافلة بالمؤلفات والمناقشات مع طلابه وكان أشهر من درس عليه الاستاذ الدكتور سيار الجميل المؤرخ الموصلي المغترب المعروف ([1]).

لم يقتصر عمل البرت حوراني على الجامعة وألقاء المحاضرات بل أسهم إسهامًا فاعلة في المعهد الملكي للشؤون الدولية بريطانيا وعمل تحت إشراف ارنولد توينبي وهاملتون جب بالنظر لمكانته العلمية الكبيرة خدم كمحلل سياسي في دائرة ومكتب الوزير البريطاني المقيم في القاهرة خلال المدة 1943-1945 كما عمل باحثاً رئيسًا وكاتبًا في المكتب العربي؛ إذ ساعد في مد العون للقضية العربية في اللجنة الإنكلو – أميركية لمتطلبات الغوث الّتي جعلته يزور فلسطين عام 1946 ثم عام 1948 التحق بكليته باكسفورد وبعد ذلك عين محاضراً لتاريخ الشرق الأوسط فيها ثم صار رئيسًا لمركز دراسات الشرق الأوسط في كلية سانت انتوني في أُوكسفورد .

نشر البرت حوراني ثمانية كتب وحقق سبع كتب ونشر أكثر ممن مئة وخمسين مقالة علمية واكثر من مئة عرض كتاب لكتب مرجعية مهمة مِمَّا يدل دلالة واضحة على جهوده الكبير ومتابعته الحثيثة لآخر الإصدارات الخاصة بالتاريخ العربي الحديث .

إنَّ واحدة من أبرز افكار البرت حوراني حول الشرق الأوسط هي أَنَّ أجيالاً عديدة كانت تشكل سلالة من السياسات المستلهمة عن النبلاء والزعامات والشيوخ القدماء

(1) سيار الجميل، " في ذكرى البروفسور ألبرت حوراني العاشرة: رجـل –أقـليـات الـشـرق الأوسـط" مجلة الحوار المتمدن-العدد: 717 - 2004 / 1 / 18 مقالة منشورة على الرابط :

https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp

وإِنَّ أَجيالاً عديدة من المؤرخين انتقلت إِليها تلك الروح السياسية والاجتماعية في تاريخ المنطقة، إِنَّ سبب عناية حوراني بالشرق الأَوسط هو الحدود المكانية لهذه المنطقة التي تشكل رأيه وحدة كافية من التربة التاريخية تجعلها صالحة لكي تكون وحدة مفهومة للدراسة ([1]).

لقد اعتنى حوراني بالحياة الاجتماعية العربية بالتاريخ العربي وحاول فهم اوعيته الثقافية المختلفة والتجارب التاريخية التي مر بها ونجح في إِعادة اكتشاف المنطقة العربية بتجاربه العلمية ومعرفته بتاريخ المنطقة، كما كان من ضمن اهتماماته دراسة الأَقليات وحقوقهم في تاريخ العرب وكان كتابه: الأَقليات في العالم العربي، باكورة أَعماله التاريخية نحو ما يمكن ان نسميه "علم الأَقليات" ، لقد اسهم البرت حوراني بتقديم دراسات معمقة حول التاريخ الحديث للشرق الأَوسط والتأسيس لقاعدة اساسية في فهم هذا التاريخ مستندة إِلى الفكر والاقتصاد والثقافة بالدرجة الاساس فيعطي بذلك نظرة أَكثر عمقاً وتحليلاً من الرى السابقة التي تقتصر على القشرة الخارجية المتمثلة بالجانب السياسي البحت .

لقد ناقش البرت حوراني في جميع ملفاته قضية التأثير الثقافي الأُوربي على الفكر العربي الحديث ويمكن أَن نلخص طبيعة الاتجاهات الفكرية التي طرحها البرت حوراني في مجمل مؤلفاته بأَنَّها لا تعدو أَن تكون قد تناولت ثلاث محاور أَساسيَّة: المحور الأَوَّل هو محور الفكر العربي وأَبرز كتاب في ذلك كتابه : الفكر العربي في عصر النهضة 1798- 1939 والمحور الثاني هو الشعوب العربية والمجتمع العربي وابرز كتاب تناولها كتابه : تاريخ الشعوب العربية الصادر سنة 1991 الَّذي مثل خلاصة تجربته الفكرية والتاريخية عن المنطقة، أَمَّا المحور الثالث فجاء عن تأثير الإِسلام على الفكر الأُوروبيّ، فإذن نلحظ أَنَّ البرت حوراني حاول تقديم رؤية تاريخية تتسم بالتفاعل بين الإِسلام والغرب ومحاولة دراسة العلاقة بينهما من ناحية

(1) حوراني وآخرون، الشرق الاوسط الحديث، مدارات للابحاث والنشر، (القاهرة : 2016)، ص14.

التأثير والتأثر ولاسيَّما التأثير على المجتمع العربي وتاثير الإِسلام على الفكر الأُوروبيّ .

وكما ذكرت في مقدمة البحث فإِنَّ هذا البحث سيتناول الفرضية التي قدمها البرت حوراني عبر كتاباته المختلفة حول الأَثر الأُوربي في الفكر العربي الحديث، ففي كتابه : الفكر العربي في عصر النهضة 1798–1939 الَّذي تالف من ثلاث عشرة فصلاً يرى أَنَّ التأثير الأُوربي كان يمثل نقطة التحول المركزية في الفكر العربي الحديث؛ إِذ استطاع هذا الفكر من التأثير على شريحة واسعة من مفكرين عرب ومسلمين برزوا على الساحة الفكرية العربية وأَسهموا بمؤلَّفاتهم وكتاباتهم في مشروع النهضة العربية ويرى البرت حوراني أَنَّ هذا التأثير إِنَّما منبعه كان من الرب وتحديدًا من أُوروبا؛ إِذ شكل عام 1798 بمثابة الصدمة الاولى للحضارة الإِسلامية في التعرف على قوة الحضارة الغربية الَّذي تمثل بغزو نابليون[1] لمصر فمنذ هذا التاريخ بدأ الفكر الأُوربي يتغلغل بشكل تدريجي وناعم نحو مختلف اوجه الحياة الفكرية في الوطن البلاد العربي ولا سيَّما على صعيد المؤسسات التربوية والعلمية والصحف والرائد ويرها من مناهل المعرفة العربية .

فقبل أَن يتحدَّث عن الأَثر الأُوربي في الفكر العربي قدم في الفصلين الأَوَّل والثاني من كتابه الفكر العربي في عصر النهضة أَرضية تاريخية وفكرية شرح فيها طبيعة

(1)قائد عسكري وسياسي فرنسي إيطالي الأصل، وُلد في جزيرة كورسيكا لأبوين ينتميان لطبقة أرستقراطية تعود بجذورها إلى إحدى عائلات إيطاليا القديمة النبيلة.بزغ نجمه خلال أحداث الثورة الفرنسية، وقاد عدّة حملات عسكرية ناجحة ضدّ أعداء فرنسا خِلال حروبها الثورية. حكم فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر بصفته قنصلًا عامًا، ثم بصفته إمبراطورًا في العقد الأول من القرن التاسع عشر، حيث كان لأعماله وتنظيماته تأثير كبير على السياسة الأوروبية. هيمن نابليون على الشؤون الأوروبية والدولية خِلال فترة حُكمه، وقاد فرنسا في سلسلة انتصاراتٍ مُبهرة على القوى العسكريّة الحليفة التي قامت في وجهها، فيما عُرف بالحروب النابليونية، وبنى إمبراطوريّةً كبيرة سيطرت على مُعظم أنحاء أوروبّا القاريّة حتّى سنة 1815 عندما سقطت وتفكّكت . ينظر :
Andrew Roberts, Napoleon: A Life. Penguin Group,(U.K: 2014) , Introduction.

الفكر العربي قبل عصر النهضة؛ إِذ بدأ حديثه عن الحياة السياسية عند العرب مع ظهور البعثة النبوية الشريفة ثم تحول النظام السياسي العربي إِلى حكم جبري ملكي وبدأ يستعرض آراء بعض مفكري الإِسلام من امثال الغزالي (1058-111م) والماوردي وبدر الدين بن جمعة (1241-1333م) وابن خلدون إِذ اكد في اغلب كلامهم الحديث الذي يوجب طاعة ولي الامر وبوجوب وجود حاكم وبأن لا عدل بدونه فهو ظل الله على الارض ([1]) وعلى الجامعة القول به أياً كان وهذا يصح في الإِمام كما يصح في سائر الحكام، والإِمام إما يختار اختياراً أَو أَن يفرض نفسه بشوكته الخاصة، كما يستعرض آراء بعض الفلاسفة المسلمين أَمثال الفارابي وابن سينا حول رأيهم بالمجتمع الإِسلامي والحكم ثم يتناول موقف شيخ الإِسلام بن تيمية الذي عدّه موقف وسطي في مفهومه للشريعة الإِسلامية وحاكميتها فقال في هذا الصدد :" إن مفهوم الشريعة يجب ان يتسع ليشمل جميع الافعال المترتبة حتماً على وظيفة الحاكم وصلاحية التقدير التي بدونها لا يستطيع الحاكم البقاء في الحكم ولا رعاية خير الامة، وبذلك تعود الشريعة كمبدأ موجه للحكم والامة "([2])

ثم ينتقل للحديث عن الخلافة الإِسلامية وينقل عن سيد مرتضى الزابدي (1732-1891) قوله إِنَّ الخلافة زالت من الوجود فهو يبيِّن أَنَّ الخلافة تنال بالاستحقاق أَمَّا السلطنة فتنال بالقوة وإِذا كان للخليفة قوة وعصبية كان له ان يحكم ولا وجب ان يحكم السلاطين والأُمراء باسمه هذا خلاصة رأي سيد مرتضى الزبدي الذي أَخذ عنه حوراني حول مكانة الخلافة في التاريخ الإِسلامي ومكانتها عند المفكرين وقد خصص حوراني الفصل الثاني للكلام عن الدولة العثمانية التي اسماها الامبراطورية العثمانية لأَنَّها حسب ادِّعائه أَنَّ الامبراطورية إِنَّما تتألف من شعوب وأُمم واديان وطوائف خاضعة تحت الحكم العثماني ثم يبدأ بوصف طبيعة النظام السياسي العثماني إِذ بين أن الدول العثمانية كانت أَوَّل من أَعطت المحاكم الشرعية

(1) حوراني، الفكر العربي في عصر النهضة، ترجمة كريم عزقول، دار النهار (بيروت : 1977)، ص27.

(2) حوراني، الفكر العربي، ص34 .

شكلها النظامي وأَخضع موظفي المحاكم الشرعية للتنظيم الرسمي والقضاة يقضون وفقاً للشريعة الإِسلامية والمفتون الذي يفسرون الشريعة والاساتذة يدرسونه في مدارسهم وموظفي الجوامع منتظمين في هيئة رسمية لها رتبها ونظامها التدريجي وكلها تشكل جزءًا من جهاز الحكم الإِداري والعسكري العثماني؛ إِذ يؤدي هؤلاء دور الصلة المعنوية والإِدارية ين السلطان ورعاياه فبواسطتهم وبهم يعلن السلطان أَوامره إِلى الشعب ويؤثر في رأي العام الإِسلامي ([1])

ويؤكِّد في نهاية الفصل الثاني من كتابه المذكور أَنَّ الدولة العثمانية لم تعترف بالتفرقة العنصرية بين العرب وغيرهم لكن التمييز كان في استخدام اللغات كوظيفة لديها فاللغة العربية هي لغة الدراسة والشريعة عند سكان الدولة العثمانية واللغة التركية هي لغة الجيش والحكم واللغة الفارسية هي لغة الأَدب والشعر([2]) لكن من جهة أُخرى كان (للإِشراف العرب)([3]) دور معترف به في الدولة ولهم امتيازات مالية وشرعية من تحت قيادة النقيب الذي يسمى نقيب الأَشراف ([4]).

لقد شكل الفصلان الأَوَّل والثاني من كتاب البرت حوراني بمثابة المدخل والتمهيد الذي يحاول فيه فهم طبيعة التفكير العربي قبل ظهور الأَثر الأُوروبيّ فكان الجانب الديني قد شغل الفصل الأَوَّل وطبيعة نظام الحكم الإِسلامي ثم قفز بعد ذلك إِلى الفصل الثاني للحديث عن الحقبة العثمانية التي هي موضوع دراسته الأَساسيَّة فاقترب كثيراً من حقل دراسته ليتول فبعدها إِلى صلب موضوعه وخاصة الفصل الثالث الذي أَراد خلاله دراسة التأثير الأُوربي في الفكر العربي الحديث فجاء الفصلين

---

(1) حوراني، الفكر العربي، ص44 .

(2) ينظر ايضاً : حوراني، تاريخ الشرق الاوسط الحديث، ص15.

(3) يطلق على المنحدرين من سلالة النبي محمد (ﷺ) اسم الاشراف وقد تطورت مكانتهم كثيراً خاصة في العهد العثماني حيث انشأت لهم نقابة خاصة بهم تسمى نقابة الاشراف لها فروع في الب ولايات الدولة العثمانية وكان رئيس النقابة الاعلى يقيم في استانبول . قاسم حسن آل شامان السامرائي, نقابة الأشراف في المشرق الإسلامي حتى نهاية فترة حكم الأسرة الجلائرية، دار الكتب العلمية، (بيروت: 2013)، ص. 19.

(4) حوراني، الفكر العربي، ص50 .

الأَوَّل والثاني بمثابة التمهيد الذي لا بد منه في فهم طيعة النظام السياسي والثقافي والاجتماعي في الإِسلام ومن ثم البحث في الأَثر الأُوربي الذي احدثته في التفكير العربي في العصر الحديث .

ثانياً : الانطباع الأَوَّلي للعرب عن أُوروبا عند حورانيّ:

بعد أَنَّ مهّد البرت حوراني في الفصلين الأَوَّل والثاني من كتابه الفكر العربي في عصر النهضة ينطلق من الفصل الثالث، وحتى نهاية الكتاب لمناقشة وتتبع الأَثر الأُوروبيّ في الفكر العربي الحديث منذ العصر العثماني الأَخير وحتى الحرب العالمية الثانية الَّتي اعتقاده مثّلت هذه الحقبة قمة ما وصل اليه الأَثر الأُوروبيّ على الفكر العربي الحديث وانتهى بالاحتلال الأُوروبيّ للدول العربية وخضوعها للأَفكار الغربية بصورة مباشرة وتقبل الدول العربية لهذه الأَفكار والانتظام حولها وكل ذلك بمتابعة دقيقة تحاول الكشف عن خيوط اللعبة التي قامت بها القوى الاستعمارية الكبرى ولا سيما فرنسا وبريطانيا .

إِنَّ مرحلة جديدة يراها البرت حوراني قد لاحت في الأُفق وبدأت مع بدايات القرن التاسع عشر مع تقدم مضاعف في القوة والتأثير الأُوربيين فقد ولّدت حروب الثورة الفرنسية قوة عسكرية أَعظم مرتكزة على أَنواع جديدة من التنظيم والتقانة العسكرية وكان المؤشر إِلى ذلك احتلال فرنسا السريع لمصر عام 1798م، ومع أَنَّه لم يدم طويلاً إِلَّا أن اختراق قوة أوروبية قلب العالم الإِسلامي كانت له أَصداء بعيدة المدى أَدَّى إِلى تورَّط الحكومة العثمانية في تحالفات مع أَعداء فرنسا، وكان التقدم الروسي من الشمال أكثر أهمية ودواماً، لفترة ما في المقاطعات الأُوربية التابعة للامبراطورية العثمانية ولوقت أَطول في القوقاز فضلًا عن التغيير في طبيعة التجارة بعد 1815 إذ استدارت المراكب التجارية الأُوربية إِلى مرافئ الشرق جالبة معها بضائع جديدة انتجتها مصانع أُوروبا ومنتجات حديدية ومنسوجات قطنية ومع توسع خدمات الرق في أَواسط القرن التاسع عشر اصبح الشرق الأَوسط أَكثر قربًا إِلى أُوروبا (1).

(1) حوراني، الشرق الاوسط الحديث، ص20 .

فالظروف الداخلية والخارجية التي كانت عليها أَوضاع الدولة العثمانية كانت قد مهدت السبيل والطريق إِلى حاجة الدولة إِلى التقنية الأُوربية في البداية ثم الفكر الأُوربي بعد ذلك، وهنا يؤكد البرت حوراني على مسألة حاجة الدولة العثمانية للاقتباس عن أُوروبا، وهنا أَودُّ أَن أُبيِّن أَنَّ البرت حوراني يبرر للتأثير الأُوربي على الدولة العثمانية انه تأثير نابع من " حاجة " الدولة العثمانية للاقتباس عن أُوروبا وبالتالي لم يكن اقتباسها شكلياً أَو جبراً بل كان بمحض الإِرادة؛ لأَنَّه كما يقول الرت حوراني " حاجة ضرورية " ([1]) فالتقدم كان على كافة الاتجاهات وكانت هناك تغييرات كبيرة وقد وصلت التبدلات إِلى الشرق الأَوسط حاله كحال بقية أَجزاء العالم عن طريق التجارة العالمية وأنواع جديدة من الاتصالات والثقافة وأشكال جديدة من الادارة والقانون فرضتها أحياناً الحكومات المحلية الراغبة في امتلاك قوة الدول الأُوروبيّة وأحياناً تلك الدول نفسها عندما وسعت امبراطوريتها بواسطة القوة العسكرية التي حصلت عليها بفعل التغيرات في مجتمعاتها ([2]).

على الرغم من أَنَّ علماء الدولة العثمانية كانوا يحثُّون السلاطين على اعادة بناء مؤسسات الماضي العظيم إلا ان الدولة العثمانية وجدت نفسها بحاجة إِلى أكثر من ذلك إذ كان عليها ان تجد حلفاء اوربيين للدفاع عن نفسها ضد أَعداء أُوربيين آخرين وتفتح ذراعيها لفنون الحرب الجديدة فادت تلك الحاجات إِلى ظهور الرعيل الأَوَّل من السياسيين العثمانيين غربيي التفكير وكانت البداية في الاقتباس ذات محتوى عسكري وكان السلطان العثماني سليم الثالث (1789-1807م) أَوَّل من أخذ بالعلوم العسكرية الفرنسية، فبداية الانطباع الأَوَّلي والاخذ عن الغرب كانت عسكريَّة لتلبية حاجات امنية وعسكرية للدفاع عن الدولة العثمانية ضد الطامعين بها وبأَملاكها فكان لا بد من الاقتباس عن النظم العسكرية الأُوروبيّة ولاسيَّما " النظم الصديقة " يقصد بها فرنسا ضد نظم اوروبية عدوة (كروسيا والنمسا) فبدأ مشوار التعرف على النظم الأُوربية وتشكيل الانطباع الحضاري الأَوَّلي عبر بوابة الجيش

(1) البرت حوراني، الفكر العربي، ص 52-59.

(2) حوراني، تاريخ الشرق الاوسط الحديث، ص15 .

والعسكر فكان لا بدَّ من الاقتباس عن أُوروبا عسكريًا فبعد إِصلاح الجيش بدأ فتح المدارس العسكرية، وكان معظم أَساتيذ هذه المدارس من الفرنسيين وكانت لغة التعليم فرنسية وإِيطالية، واحتوت بعض هذه المدارس الناشئة على مكتبات حوت كتب باللغة الفرنسية بالدرجة الأَساس فيها مختلف العلوم والمعارف وكانت الدراسة في هذه المدارس ذات الطابع الأُوربي تركز على مادة الرياضيات والملاحة والجغرافية والتاريخ وقد اتفق معظم المسؤولين العثمانيين على ضرورة اصلاح الجيش العثماني بطلب المساعدة من ضباط اختصاص أُوروبيين وكان شرطهم الوحيد في ذلك أَنَّ هذه الإِصلاحات يجب أَن تتم دون المساس بثوابت الشريعة الإِسلامية ([1])

كانت الناحية العسكرية هي الناحية الاكثر حاجة للعثمانيين في الاقتباس عن اوروبا ولكنها لم تكن الوحيدة في حقيقة الأَمر؛ لأَنَّ مسأَلة الاقتباس في حقيقة الأَمر أَكثر عمقاً وشمولاً ومهما حاول المرء تجنب بقية النواحي سوف يصطدم بمعوقات وعقبات كبيرة وكثيرة، فقد شهدت حقبة القرن الثامن عشر فتح سفارات عثمانية في عواصم أُوروبية أَرسل إِليها الشباب العثماني لدراسة اللغات الأُوروبيّة وتعلم فنون السياسة الأُوروبيّة فنتج عن ذلك ظهور الرعيل الأَوَّل من العثمانيين المتأَثرين بالثقافة الأُوروبيّة ومشبعين بأَفكارهم ومن أَبرز هؤلاء : احمد وفيق باشا ومصطفى رشيد باشا الذي برز تأثيرهم في عشرينيات وثلاثينيات القرن التاسع عشر وقد نتج عن ذلك كما يقول حوراني تقدير رؤيتهم الإِصلاحيَّة بالتأكيد على وجوب تحول الدولة العثماني إِلى دولة مركزية حديثة تحاكي الدول الأُوروبيّة الحديثة ولتحقيق ذلك لابدَّ من شروط أَبرزها: إِنشاء جيش حديث وضباط مثقفين ونظام تشريعي وإِداري حديث قائم على المساواة ين جميع رعايا الدولة [(2)].

لقد قررت الدولة العثمانية كما فهم ذلك البرت حوراني ولا سيَّما منذ عهد السلطان محمود الثاني (1808-1839م) تبني واتخاذ تدابير من شانها التعجيل

10) حوراني ن الفكر العربي ن ص60-61.

(2) حوراني، الفكر العربي، ص63 .

بالاقتباس عن اوروبا فبدأ بفتح المدارس للاغراض العسكرية وتخريج ضباط أَطباء وموظفين وارسال البعثات إِلى أُوروبا والغاء الإِقطاعات والأَنظمة الاقطاعيَّة السابقة وإِصلاح مؤسسة الأَوقاف وأَعياد الحكم المركزي إِلى أَغلب ولايات الدولة العثمانية واعتمد لباس حديث بدأ يتغلغل في المجتمع العثماني وقد تكللت جهود العثمانيين سنة 1839م بإِصدار قرار أَو مرسوم دعي باسم (مرسوم كولخانه) عام يعلن فيه تبني الدولة العثمانية لمبادئ الاصلاح ومثل هذا الإِعلان ذروة ما وصل إِليه التأثير الأُوروبيّ على الدولة العثمانيَّة على الرغم من أَنَّ البيان أَكَّد على أَهميَّة الإِسلام ودوره في تحقيق النهضة الشاملة وأَنَّ سبب التدهور الحاصل في الدولة مرده إِلى تجاهل الشرائع المقدسة والأَنظمة المستمدة من الشريعة الإِسلامية([1]) فجسدت هذه المبادئ نوايا الحكومة العثمانية في تطبيق المساواة وإِصدار قوانين تعيد تنظيم الحكومات المركزية والمحلية على نطاق واسع وقد جاء بيان عام 1856 (خط شريف همايون) للتأكيد وإِعادة التأكيد على هذه النظرية في التعامل ([2]) ولا شك أَنَّ صدور هذين المبدأين يمثل ثمرة من ثمار التأثير الأُوربي على الدولة العثمانية ومن وجهة نظر الباحث أَجد أَنَّ هذين المبدأين هما نتيجة من نتائج الضغط الأُوربي على الدولة العثمانية لتبني سياسات قريبة من الأُوربيين ولا سيَّما من فرنسا من أَجل تقوية سلطة الدولة المركزية والحد من التدخلات الأُوروبيّة .

ثالثاً : محمد علي باشا نموذجاً للتأثير الأُوروبيّ عند البرت حوراني:

قدّم البرت حوراني نماذج عدة للتأثير الأُوربي على الولايات العربية ولكن التأثير الأُوربي على مصر كان أَبلغ وأَكثر أَثرًا لذلك خصص الرت حوراني له الصفحات الطوال للحديث عن التجربة المصرية في الإِصلاح الَّتي مثّلت تجربة ناجحة أَظهرت فيه أُوروبا تأثيرها الواضح على المسلمين في مصر .

لقد شهدت مصر في عهد محمد علي باشا (1805-1849م) تحوُّلات اجتماعية واقتصادية مميَّزة ويبرهن البرت حوراني على الدور الأُوروبيّ في هذه

(1)حوراني، الفكر العربي، ص65.

(2)حوراني، الفكر العربي، ص67.

التحولات بالأَثر الذي تركته حركة السانسيمونيين هذه الحركة التي قدر لها أَن تنجز أَعمالًا ضخمة في مصر وتحدث تأثيراً كبيراً على الواقع الاقتصادي والاجتماعي في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر؛ إِذ عملوا في مجالات الطب والهندسة والتعليم وكانوا مساعدين أَساسيين في تخطيط أَوّل عملية كبيرة حديثة من عمليات الري في مصر كإِقامة السدود على النيل ([1]).

لقد حاول حوراني أَن يبرهن على الأَثر الفرنسي المباشر والكبير على نهضة مصر في عهد محمد علي خاصة دور حركة الساسيمونيين تلك الحركة التي عاش مؤسسها كلود هنري دوروفروا (1670-1825م) في مقاطعة سان سيمون بفرنسا ونسبت الحركة اليها المقاطعة؛ إِذ كانت الحركة تؤمن بأَنَّ الصناعة أَساس بناء المجتمع وعلى الرغم من فشلهم في تحقيق أَهدافهم في الراديكالية في فرنسا إِلَّا أَنَّهم وجدوا ترحيبًا حارًا من محمد علي باشا، وأَتاح لهم فرصة نشر منهجهم وأَعمالهم؛ إِذ كانوا متأثرين جداً بمبادئ الثورة الفرنسية حتى أَن زيهم كان يشتمل على أَلوان علم الثورة الفرنسية، وكان من أَبرز الأَعمال والمشاريع التي عرضوها على الوالي : مد خط سكة حديد بين القاهرة وأَسوان وبين القاهرة والإِسكندرية، والمشروع الثاني إِقامة القناطر الخيريَّة على النيل وتعدُّ واحدة من أَبرز المعابر لوسط الدلتا، وهي تبعد في حدود 20 كم من القاهرة[2] .

والمشروع الثالث شق قناة السويس الذي كان يعد حلماً من أَحلامهم وبعد رحيلهم عن مصر تركوا خلفهم مهندسين مصريين تأثروا بهم كمظهر باشا ومحمد بيومي وآخرون كما أَثَّروا بكتاب آخرين أَمثال رفاعة الطهطاوي (1801-1873م) الذي كتب عنهم في كتابه : مناهج الأَلباب المصرية في مباهج الآداب العصرية " ووصف أَعمالهم ومشاريعهم بأَنَّها تمثل " العجب العجاب " كما أَشاد علي مبارك (1823-1893م) الذي يعدُّ من أَشهر من اعتنى بالجانب العملي للنهضة والعمران

(1) حوراني، تاريخ الشرق الاوسط الحديث، ص21.

(2) محافظة القليوبية. الهيئة العامة للاستعلامات، بتاريخ 30 أكتوبر 2015 على الرابط :
https://web.archive.org/web/20160324153111/http://sis.gov.eg/Ar/Templates/

في مصر، وتعددت إسهاماته فيها([1]) . بحركة السانسيمونيين وكتب عنهم في كتابه : الخطط التوفيقية ([2]).

كما يدعم البرت حوراني رأيه في الأَثر الفرنسي للنهضة المصرية على عهد محمد علي باشا بالتركيز على الشخصيات الفرنسية التي استعان بها أَمثال الكولونيل سيف الذي صار فيما بعد سليمان باشا الفرنساوي وكلوت بك([3]) الذي استعان به في تطوير الطب في مصر وعيّن لومبير ناظراً لمدرسة المهندسخانه وهو اشبه بعميد كلية الهندسة حتى ان بعض المصريين المتأثرين بالسانسيمونية انضموا اليها كما

(1) محمد عمارة: علي مبارك مؤرخ ومهندس العمران ــ دار المستقبل العربي ــ(القاهرة ــ 1984)، ص12-27..

(2) الخطط التوفيقية : المطبعة الكبرى الاميرية، (القاهرة : 1998)، ص28-37.

(3) هو انطوان براثيليمي كلوت Antoine Barthelemy Clot) ولد في (7 نوفمبر 1793، وتوفي 28 أغسطس 1868، مارسيليا) المعروف باسم كلوت بك، وهو طبيب فرنسي قضى معظم حياته في مصر، بعدما عهد إليه محمد علي باشا بتنظيم الإدارة الصحية للجيش المصري، وصار رئيس أطباء الجيش. منحه محمد علي باشا لقب «بك» تقديرًا لجهوده في النهضة الطبية التي أحدثها في مصر. أقنع كلوت بك محمد علي باشا، بتأسيس «مدرسة الطب» في أبي زعبل عام 1827، تولى إدارتها، وكانت أول مدرسة طبية حديثة في الدول العربية، وكانت تضم 720 سريرًا، والتي نقلت بعد ذلك إلى قصر العيني، والذي غلب على اسمها فأصبحت تعرف باسم القصر العيني. أُلحق بها مدرسة للصيدلة، ثم أخرى لتخريج القابلات. بذل كلوت بك جهودًا كبيرة في مقاومة الطاعون الذي حل بالبلاد عام 1830. وعُنيِّ بتنظيم المستشفيات وهو الذي أشار بتطعيم الأطفال ضد الجدري. وفي عام 1847، كان كلوت بك أول من استخدم البنج في مصر في عملياتٍ خاصة بالسرطان والبتر. أثرى كلوت بك المكتبة الطبية العربية، بالعديد من المؤلفات الطبية. في عام 1849، عاد إلى مرسيليا، بعد أن ساد مصر حالة من الإهمال في عهد عباس حلمي الأول، ورغم ذلك، عاد إلى مصر عام 1856، في عهد محمد سعيد باشا الذي قرر إعادة افتتاح مدرسة الطب في احتفالٍ ضخم. وفي عام 1858، عاد كلوت بك إلى فرنسا لاعتلال صحته، وتوفي في مرسيليا عام 1868. ينظر : أ.ب. كلوت بك، لمحة عامة الى مصر، ترجمة : محمد مسعود، دار الكتب والوثائق، (القاهرة : 2011)، ص ج.

فعل إِبراهيم أَدهم بك (ت1869م) ([1]) الذي انضم في 1835م وكان قريبًا من الأب انفونتان؛ إِذ قام بتكييف المبادئ السانسيمونية مع الثقافة الإِسلامية كما استعان هؤلاء بثلاثة شخصيات مصريَّة مهمة للعمل معهم: محمد بيومي ومحمد مظهر ومصطفى المراغي وهؤلاء درسوا في فرنسا وكانوا أَحد تلامذة الفيلسوف الفرنسي اوغست كونت المتاثر بالسانسيمونية وأَشرف هؤلاء على إِعادة العمل بالقناطر الخيرية كما تأثر الشيخ حسين المرصفي (1815- 1889م) ([2]) بهم ووضع مناهج التعليم وظهر تأثره بأفكارهم حول النهضة والصناعة والدولة القومية([3]).

---

(1) يعدا واحدا من رواد الإدارة التربوية السلطوية في عهد محمد علي وخلفائه المباشرين. كان تنفيذيا تقليديا من القلائل الذين تولوا أمور المعارف في مستواها الأعلى، حيث كان رئيسا لديوان المدارس ثلاث مرات. هو المسئول الأول عن التعليم المصري في العهد الذي سبق على مبارك باشا الملقب بأبو التعليم ١٨٢٤- ١٨٩٣، ولا سبيل إلى مقارنته بعلي مبارك باشا في تكوينه الفكري ولا في توجهاته ولا في إنجازاته لكن عمله التقليدي لم يخل من إنجازات تعتبر ضخمة في عصر الانحطاط الذي أدى فيه مسئوليته عن التعليم في دولة خلفاء محمد على الأولين حين كانت الآمال التوسعية قد تقلصت ومن ثم تضاءل الاهتمام بالتعليم إلى اقصى حد ومع هذا فقد نجح هذا الرجل الطيب المسالم في أكثر من مهمة بدءا من عهد محمد علي باشا نفسه فهو الذي تولى انشاء مدرسة الفنون والصنائع (1839)، وكانت تسمي «مدرسة العمليات»، كذلك فإنه هو الذي أنشأ (بعد هذا) في أواخر سنة 1847. (ينظر : محمد الجوادي، إبراهيم أدهم باشا منشئ الكليات الهندسية والحربية وأول وزراء المعارف، مقال منشور على الجزيرة مدونات على الرابط :

https://www.aljazeera.net/blogs/2020/4/12

(2) الشيخ حسين أحمد المرصفي (توفي 26 يناير 1889م) هو شيخ الأدباء في عصر الخديوي إسماعيل، وهو أوائل أساتذة دار العلوم عند إنشائها.نشأ في بلدة مرصفا مركز بنها بالقليوبية، وهو ابن الشيخ أحمد المرصفي ــ المكنى بأبي حلاوة ــ أحد علماء الأزهر الأعلام في عصره. (ينظر : ابراهيم عوضين: من أعلام الأزهر: الشيخ حسين المرصفي. مجلة الأزهر، السنة 53، العدد 8، شعبان 1401 هــ) .

(3) محمد شعبان، السانسيمونيين حالمون لفظتهم فرنسا فاتجهوا الى التحديث مصر في زمن الباشا، مقال منشورة في مجلة رصيف بتاريخ 27 حزيران 2018 .على الرابط :

https://raseef22.net/article/153281

ويرى البرت حوراني أَنَّ المدارس والبعثات العلمية التي قام بها محمد علي باشا كان لها تأثيراً أَبعد مِمَّا كان يشتهي محمد علي باشا نفسه ([1]).

أَمَّا في بلاد الشام فالأَمر مختلف قليلاً بالنسبة لألبرت حوراني ذلك أَنَّ وصول المعرفة الغربية إِلى بلاد الشام كان أَكثر بطئًا([2]) والسبب أَنَّها لم تتعرض إِلى هزة فكرية واجتماعية كالَّتي تعرَّضت لها مصر إِبَّان الغزو الفرنسي وما رافقه، فالمسيحيون في سوريا كانوا متأثرين ببعض جوانب الفكر الأُوربي بفضل الإِرساليات الدينية وحماية فرنسا فنشأت على إِثرها شبكة من المدارس الكاثوليكية في أَماكن سكناها خاصة في جبل لبنان وحلب فبرز فريق من المثقفين السوريين عدُّوا أَنفسهم بمثابة جزءاً من العالم الأُوروبيّ الجديد .

وفي ختام حديثه عن تجربة محمد علي باشا يرى حوراني أَنَّ محمد علي باشا تمكن في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر احتلال بلاد الشام وسجّل عهده مرحلة جديدة من مراحل التعرف على أُوروبا فغدت بلاد الشام أَكثر ترحيبًا بالأُوربيين ووضعت البلاد تحت إِدارة من نوع جديد قائم على مبادئ بثتها حكومة فرنسا الثورية خاصة : المركزية الإِدارية وإِقامة جيش منظم ومنضبط والاستثمار العلمي للموارد الطبيعية واستغلالها الاستغلال الامثل والمساواة الاجتماعية ين اتباع مختلف الأَديان والمذاهب ([3]) وفي أَثناء الثورة التي اندلعت ضد الحكم المصري في بلاد الشام ركّز حوراني على البيان الذي أَصدره السوريين بكافة طوائفهم ومذاهبهم، وكان أَبرز ما جاء في البيان تأكيده على اتباعهم للنموذج اليوناني الذي ثأر ضد الحكم العثماني بدعم أُوروبي واضح؛ إِذ جاء فيما نصه : " ... وقد سبق لليونان أَن كانوا أَحسن قدوة لنا فحصلوا على حريتهم وكان الله معينهم " ([4]) ويعلق حوراني على هذا البيان بالتركيز على الدور الأُوربي في الثورة التي أَطاحت بالحكم المصري في بلاد الشام؛

(1) حوراني، الفكر العربي، ص75 .

(2) حوراني، الفكر العربي، ص75.

(3) حوراني، الفكر العربي، ص81.

(4) فيليب وفريد الخازن، مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان (جونيه : 1910)، ج1، ص2.

إِذ يقول :" ان الثورة السورية قامت بمساعدة الدول الكبرى التي كانت سياستها ترمي إِلى إِعادة نفوذ السلطان إِلى سوريا .. " (1) .

وبعد انسحاب محمد علي باشا من بلاد الشام يرى حوراني أَنَّ النفوذ الأُوروبيّ تزايد كثيراً في وريا وأَخذت الأَفكار الغربية بالانتشار فزاد ذلك بعداً جديداً من إِبعاد الصراع الداخلي الذي اجتاح بعض المدن السورية ولاسيَّما جبل لبنان الذي لم يخلُ الصراع الداخلي الذي نشب طيلة المدة من 1840 ولغاية 1860 من تأثير أُوروبي على الصراع كاد أَن يذهب الأَخضر مع اليابس .

رابعاً : الأُنموذج التونسي والأَثر الأُوروبيّ:

ويطرح بعد ذلك أُنموذجًا آخر من نماذج النهضوية العربية التحديثية وهذه المرة تونس؛ إِذ يتناول البرت حوراني التجربة النهضوية التحديثية في تونس ويرى أَنَّ عهد الأَمان الذي أَصدره باي تونس سنة 1857م ثم اتبعه بدستور عام 1860 كان يمثل اول تجربة دستورية حديثة يصدر عن بلد مسلم في العصر الحديث ثم يحاول أَن يتتبع خلفيات هذا القرار ويرى أَنَّه ليس من الواضح من كان وراء فكرة الدستور تلك ومع ذلك استبعد كل الخيارات ما خلا الخيار الغربي فيتساءل:" أيكون ريتشارد وود (قنصل بريطانيا في تونس 1857) إِذ كان لهذه الشخصية دور سياسي ومخابراتي خطير ولا سيَّما في تحريض السوريين على الحكم المصري في مُدَّة الثلاثينيات حينما كان في جبل لبنان بحجة تعلم العربية ثم صار قنصلاً في دمشق للمدة (1842-1845) ثم انتقل بعهدها إِلى تونس سنة 1857، فلا يستبعد حوراني دور الجاسوس ريتشارد وود (2) في دعم إِصدار عهد الأَمان والدستور

(1)حوراني، الفكر العربي، ص84.

(2) ريتشارد وود : وُلد ريتشارد وود في عام 1806، لأب يعمل مرشدًا ومترجمًا للغات العربية والتركية والفارسية في الخدمة البريطانية، وقضى جزءًا من حياته في الأراضي العثمانية وشطرًا آخر في مدينة إكستر الإنجليزية، حيث التحق بمدرسة داخلية حتى عام 1823. وفي النهاية، أصبح مترجمًا هو الآخر، وأجاد التركية، واليونانية، والفرنسية، والإيطالية. علاوةً على ذلك، كان ضليعًا بخصوصيات العالم العثماني، والطرق المحلية لممارسة السياسة، وقد منحه هذا الوسط مكانة فريدة وأهمية كبيرة لدى البريطانيين. بدأت مغامرات ريشتارد وود في بلاد الشرق في عام 1831، وهو

التونسي، كما يرى حوراني من جهة أُخرى دور للإِيطاليين؛ إِذ كان هناك سياسيون إِيطاليون مقيمين لدى الباي وهم منفيون، فضلاً عن ذلك يرى دور لموظفين توانسة ممن اتقنوا الفرنسية وزاروا فرنسا فليس من الصعب تعيين المصادر التي انبعثت عنها فكرة الدستور[1].

وهكذا كان التأثير الأُوروبيّ حاضراً دائمًا لدى البرت حوراني وهو يحلل ويناقش التحولات والاحداث التي شهدتها المنطقة العربية؛ إِذ كان حوراني يرد كل مشروع تحديثي أَو نهضوي أَو اي تحول سياسي أَو اجتماعي تشهده البلاد العربية إِلى التأثير الأُوربي حتى عندما يتحدث عن المدارس التقليدية لا يفوته الاشارة إِلى الدور الأُوروبيّ فمسجد الزيتونة (جامعة الزيتونة) على الرغم من كونه من المساجد ذات البعد المدرسي التقليدي الَّذي يمثل وجه من أَوجه الحضارة الإِسلامية في تونس يرى في نشاطه في القرن التاسع عشر أَثرًا أُوروبيًا بالتركيز على شخصية الشيخ محمد عبده (1849-1905م) الذي كان له موقف من الحضارة الأُوروبيّة، ويعدُّ من أَبرز رواد حركة النهضة العربية في التاريخ العري الحديث فضلاً عن ما ذكره من تأسيس المدرسة الجديدة للعلوم العسكرية التي ادارها مدرسين ايطاليين ودرّس فيها مدرسون بريطانيون وفرنسيون فلا يخلو الأَمر عند حوراني من تأثير أُوروبي في أَي عمل تحديثي أَو نهضوي تشهد البلاد العربية في العصر الحديث ([2]) .

لقد حصلت تلك التغييرات ضمن مناخ اتسم بسيطرة أُوروبية محكمة وفي سبيل تمويل هذه التغييرات رزحت الحكومات المحلية تحت وطأة الديون التي قدمها أَصحاب المصارف الأُوربيين المدعومين من حكوماتهم التي جاءت لتمارس هيمنة قوية على

العام الذي تمرد فيه محمد علي، والي مصر المدعوم من فرنسا، على السلطان العثماني محمود الثاني، وأرسل ابنه إبراهيم باشا لغزو سوريا. رأت بريطانيا حينها في حملة محمد علي في بلاد الشام تهديدًا لإمبراطوريتها؛ لأن ذلك سيُمكّن فرنسا من ممارسة تأثير هائل على الطرق المؤدية إلى الهند. ينظر : محمود صالح سعيد، المسألة اللبنانية، جبل لبنان في السياسة الاوربية، دار الميثاق، (الموصل : 2009)، 66.

(1) حوراني، الفكر العربي، ص87.

(2) حوراني، الفكر العربي، ص88.

عملية التمويل، وفي مصر كانت هذه الهيمنة خطوة أولى في سبيل فرض حكم قوة أُوروبية هي بريطانيا التي صار لمصر في نظرها أهمية متزايدة بعد افتتاح قناة السويس عام 1869م وهي تمثل شريان الاتصالات الرئيس مع الهند وشرق آسيا واستراليا، وفي عام 1882 وبعد أَن سيطرت بريطانيا على المنطقة صارت في أَيدي ضباط عسكريين يؤمنون بفكرة استقلال مصر، واحتلت بريطانيا المنطقة وظلت لها السيطرة الفعالة كما حصلت عملية مماثلة في تونس التي احتلت من فرنسا 1881 م واستمرت الأُمور تجري في اتجاه تقسيم العالم بين القوى العظمى الأُوروبيّة ([1]) هكذا تمت عملية السيطرة على العالم .

خامساً : الأَثر الأُوربي على مؤرخي جبل لبنان:

قبل أَكثر من ثلاثمائة عام مضت، ظهر في جبل لبنان مجموعة من الرواة الذين تحدثوا عن ماضي لبنان مِمَّا أَعطى انطباعًا مهمًا حول وجود حس تأريخي ومهارات مميَّزة، ومن زاوية أُخرى يمكن القول بأَنَّ حالة الحروب التي شهدتها لبنان طيلة للمدة 1832–1860 تلك المُدَّة ولاسيَّما في القرن التاسع عشر يمكن عدَّها من أَبرز الدوافع التي كانت تقف وراء ظهور تلك السلسلة من الرواة، فكانوا بمثابة الشاهد على تلك الحروب.

لم تمتلك جميع مناطق المشرق العربي معرفة دقيقة أَو حقائق متوازنة عن تاريخها كما يقول حوراني ، فبالنسبة إِلى تاريخ مصر على سبيل المثال يمثل تاريخها وجهاً أُحادي الجانب في القرنين السابع عشر والثامن عشر، كذلك فإِنَّ ما نعرفه عن تاريخ دمشق أَو حلب أَو بغداد في ذلك الوقت أيضا يعاني من عدم دقة أَو وضوح عند مقارنته بما دونه اللبنانيين عن تأريخ بلادهم، بل وحتى مناطق كردستان الجبلية رغم تشابه جغرافيتها مع جغرافية لبنان إِلَّا أَنَّ طبيعة نموها السياسي كان مختلفًا عنه في لبنان مِمَّا انعكس بدوره على التدوين التاريخي، ولعل ذلك مرده إِلى الاهتمام الذي كان يوليه اللبنانيون بقضايا الأَدب العربي القديم فضلاً عن التأثيرات الأُوربية زاد ذلك من اهتمامهم بالماضي .

---

(1) حوراني، تاريخ الشرق الاوسط الحديث، ص22–24.

ويقف في طليعة المؤرخين اللبنانيين الذين امتلكوا حسا تأريخيًا في العصر الحديث وهم من مؤرخين الطائفة المارونية ([1]) الذين كان لبعضهم شرف الدراسة في المعاهد الدينية في روما؛ إذ اقاموا هناك جماعة رهبانية مارونية وأسسوا لأنفسهم مؤسسات تعليمية خاصة بهم وكانت كتاباتهم قد ظهرت في وقت لم يكونوا يؤلفوا جماعات دينية فحسب بل مجموعة سياسية ولم يكتفوا بالدفاع عن عقيدتهم الدينية بل سعوا للمحافظة والذود عن الحياة المستقلة التي كانوا يعيشونها في مناطقهم المنتشرة في أودية شمالي لبنان.

ويأتي في طليعة المؤرخين الاكليركيين اللبنانيين، البطريرك اسطفان الدويهي (1630-1704) الَّذي كانت أَعماله تهدف في معظمها إِلى إلقاء الضوء على تاريخ الطائفة العقيدة المارونية وأَنجز عديدة أَعمال مميَّزة صبت في معظمها بالغرض ذاته ومن تلك الأَعمال :

1- قائمة بأسماء البطاركة المارونيين .

2- تأريخ الأَزمنة، وهو من أَبرز الكتب التي أَرَّخها عن تاريخ الطائفة المارونية .

وفيما يتعلق بمنهجية الكتابة التاريخية لديه والاتجاه العام الذي سلكه، فيبدو ان حياته العلمية المبكرة بدأت، عندما عكف على دراسة بعض المخطوطات التي تعود بتاريخها إِلى عام 1622م، كما عكف على دراسة بعضها الآخر تعود

---

(1) الموارنة : هي مجموعة دينية تقطن في سواحل بلاد الشام وخاصة في لبنان وتتبع الكنيسة المارونية. تعود تسميتهم إلى مار مارون الراهب السرياني الذي عاش في شمال سوريا خلال القرن الرابع وانتقل اتباعه لاحقا إلى جبل لبنان ليقترن اسمهم به منذ القرن العاشر الميلادي مؤسسين بذلك الكنيسة المارونية. تمكن الموارنة من الحفاظ على كيان شبه مستقل في خلال فترتي الخلافة الاموية والعباسية محافظين بذلك على ديانتهم المسيحية ولغتهم السريانية حتى القرن الثالث عشر عندما تمكن المماليك من إخضاعهم. هيمن الموارنة لاحقا على كل من متصرفية جبل لبنان العثمانية بالقرن التاسع عشر وجمهورية لبنان الكبير برعاية دول أوروبية. غير أن هجرة أعداد كبيرة منهم إلى الأمريكيتين ونشوب الحرب الأهلية اللبنانية أدت إلى تقلص اعدادهم بشكل حاد حيث يشكلون حاليا حوالي ربع عدد سكان لبنان. ينظر : بطرس ضو، تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري، دار النهار، (بيروت : 1970)، ص53-68.

بتأريخها إِلى بدايات الحروب الصليبية وحتى عام 1699 م، وكان من ضمن اهتماماته كذلك محاولته استعراض تأريخ العلاقة بين لبنان ومختلف الحكام الذين "طوقوه" بدأ بالصليبيين ومرورًا بالمماليك في مصر وانتهاءً بالعثمانيين، اتَّسمت أَعمال الدويهي بالدقة والأَهمية بتغطية أحداث مميَّزة في المُدَّة من القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر، وكان يمتلك رغبة أكثر من غيره من أَسلافه بتدوين أَحداث عصره، وسعى في جميع أَعماله إِلى الحصول على المصادر المتاحة من منبعها، وكان له بعض الميل إِلى ذكر المصادر التي استقى منها معلوماته، ومن تلك المصادر على سبيل المثال كتاب ابن سباط عن تاريخ الأُمراء التنوخيين، وأَحمد الصفدي عن تاريخ الأَمير فخر الدين المعني الثاني (1586- 1653) ووليم الصوري عن تاريخ الصليبيين في بلاد الشام، ونجح الدويهي في جمع مادة لا بأس بها عن تاريخ الموارنة استقاها من الكتب الدينية ومن الوثائق المحفوظة في الفاتيكان وعلى الرغم من امتلاكه لبعض المحاولات النقدية للأُصول التي جمعها عن ذلك التاريخ إِلَّا أَنَّ ذلك النقد قل وتراجع عندما تطرق إِلى تاريخ الموارنة المبكر.

كان الدويهي كثير الاعتناء بالحقيقة التاريخية ولم تكن عنايته بالمارونية مجرد كونه أَحد أَبنائها فحسب بل كان بمثابة الداعي و"المبشر" للمبادئ المارونية، وكان أَبرز الدوافع التي حفزت الدويهي ليتجه هذا الاتجاه هو تصديه للآراء التي كان يروجها أَصحاب المذهب اليعقوبي الَّذين كانوا دومًا يقفون إِلى جانب القوات المملوكية ضد الموارنة منذ أَن تسلَّلوا إِلى لبنان في القرن الخامس عشر للميلاد.

لقد كانت الكنيسة المارونية تمثل الطائفة الشرقية الوحيدة التي تدعم المعتقد الكاثوليكي وتسعى إِلى رصد الإِنجازات التي حققتها المارونية في الماضي في دعم المعتقد الكاثوليكي، والشيء الذي تجدر الإِشارة إِليه – كما يرى حوراني – في اهتمامات الطائفة المارونية هو أَنَّ اهتماماتهم لم تقتصر على كنيستهم فحسب بل تجاوز ذلك ليشمل تاريخ العرب والثقافة العربية فضلاً عن العناية الذي أَولوه لتاريخ العالم المسيحي المشرقي وآدابه .

ومن بين العائلات الكنسية التي اتجهت نحو ذلك عائلة السمعاني اللبنانية المعروفة الَّتي تلقى أَفرادها العلوم الدينية من مدرسة روما المارونية وكانت أَعمالهم

التي قاموا بها لم تقتصر على العربية التي كانت تمثل اللغة الأُم بالنسبة لهم بل شملت كذلك اللغة اللاتينية التي تعلموها في روما أَبرز المواضيع التي انشغل بها السمعاني كانت مواضيع تتعلق بالعقيدة الدينية والحياة العامة للعالم المسيحي المشرقي، أَمَّا أَبرز علمائها فكان يوسف السمعاني (1687-1768) الذي كان مسؤولاً عن مكتبة الفاتيكان بوصفه مديراً لها، وقد قام بعملية تصنيف الكتب والمصادر التي لها علاقة بتاريخ الشرق وشمل التصنيف كل الأَدبيات التي تعود للطائفة المارونية والنساطرة وحتى اليعاقبة وقد ظهر ذلك التصنيف في أربع مجلدات.

ومن عائلة السمعاني المميَّزة كان ابن أخ يوسف السمعاني والمدعو يوسف الاوسيني، الذي كتب عن تاريخ البطاركة الكلدان والنسطورين ([1]) كذلك هناك سيمون الذي كتب عن اثر الأَدب العربي في أُوروبا الحديثة.

عندما كتب الدويهي تاريخ لبنان كان يقصد تاريخ شمال لبنان تحديداً، ولعل السبب في ذلك يكمن ان المناطق الجنوبية من لبنان الحالي لم يكن جزءاً من المناطق الشمالية من الناحية السياسية أَو الإِداريَّة في ذلك الوقت، فقد كانت المناطق الجنوبية مأهولة بالعائلات الدرزية الاقطاعية بينما كان شمال لبنان يحكمه المقدمين الموارنة وبعض اقطاعيي المسلمين الَّذين كان أَبرز ما يقومون به هو مراقبة السكان المشكوك

---

(1)يُنسب إلى «نسطوريوس» المعتقد الديني النصراني الرافض لعقيدة مجمع أفسس المعقود سنة 431م. يُعرّف أنصار كيرلس الأول -بابا الإسكندرية وخصم نسطوريوس- النسطورية بأنها العقيدة التي تؤمن بأن يسوع المسيح مكون من جوهرين يعبر عنهما بالطبيعتين وهما: جوهر إلهي وهو الكلمة، وجوهر إنساني أو بشري وهو يسوع، وبحسب النسطورية لا يوجد اتحاد بين الطبيعتين البشرية والإلهية في شخص يسوع المسيح، بل هناك مجرد صلةٍ بين الإنسان والألوهية، وبناءً عليه لا يجوز إطلاق لقب «والدة الإله» على السيدة مريم العذراء استناداً للنسطورية، فهي لم تلد إلهاً بل إنساناً فقط حلّت عليه «كلمة الله» أثناء العماد وفارقته عند الصلب، وبذلك يكون هذا المذهب مخالفاً للنصرانية التقليدية القائلة بوجود أقنوم الكلمة المتجسد الواحد ذي الطبيعتين الإلهية والبشرية. ينظر : عبد المالك خلف التميمي، التبشير في منطقة الخليج العربي دراسة في التاريخ الإجتماعي والسياسي، مركز زايد للتراث والثقافة، (العين : 2011)، ص12- 16.

في ولاءهم للسلطة المملوكية ومن بعدها للسلطة العثمانية، ولكن كلا المنطقتين توحدتا بفضل جهود الأَمير فخر الدين المعني الثاني (1586-1653) واستمرت هذه الامارة حتى عام 1697م عندما استلمت الأُسرة الشهابية السنية مقاليد الحكم في لبنان حتى عام 1841م ، وكان الأُمراء اللبنانيون يتمتعون بصلاحيات مهمة تصل إِلى إِمكانية مصادرة الأَراضي التي تملكها قوى إِقطاعيَّة أُخرى، وهو مستند في ذلك على الصلاحيات التي حصل عليها من الولاة العثمانيين القابعين في صيدا أَو طرابلس؛ إِذ كانوا يمنحون الأَمير اللبناني صلاحية فرض (الميري) على أمراء الجبل ومع ذلك كان الأَمير اللبناني يتمتع باستقلال فعلي وواقعي في مجال إِدارة المقاطعات اللبنانية الداخلية .

وفقا لهذه الرؤية التي يطرحها البرت حوراني بالنسبة للتاريخ اللبناني وموقفه من المرخين الاوائل فان لبنان قد شهد تطوراً مهماً في الحياة السياسية وقد انعكس ذلك بشكل رئيسي على الخارطة السياسية اللبنانية الَّتي يبدو انها استمرت حتى الوقت الحاضر. ومن التطورات المهمة الأُخرى التي شغلت بال البحث التاريخي عند المؤرخين الموارنة بالنسبة لألبرت حوراني هو كفاح الأَمير اللبناني من أجل صيانة "استقلال" الجبل ضد الانتهاكات التي يقترفها الوالي العثماني وضد طموحات العائلات الاقطاعية اللبنانية وتكتلاتها السياسية المدعومة غالباً من السلطات العثمانية التي كانت ترفع لواء التسامح الديني " كقناع" لدعم تواجدها السياسي في المنطقة مما قاد في النتيجة إِلى اندلاع توتر طائفي ولّد بالتالي تحول سياسي خطير تم بموجبه اقامة موازنة بين السيطرة السياسية والاجتماعية الدرزية وبين الهيمنة الفكرية والثقافية المارونية وكانت السلطات العثمانية والفرنسية تدعم تلك التحولات، ثم اخذت بقية الدول الأُوربية الكبرى بالتدخل في ذلك وكان أَيضًا، وهذا له أثره الواضح في ظهور اتجاهات جديدة في ميدان البحث التاريخي في لبنان فقد اخذ ذلك الاتجاه بالظهور بشكل واضح منذ القرن الثامن عشر، ولعل أبرز من مثّل تلك الاتجاهات تلاميذ العائلات المسيحية والكتاب العلمانيين وإِلى جانبهم يقف خريجو المدارس التبشيرية الأَجنبية الأُوروبيّة التي كانت تدرّس علومها في لبنان باللغة العربية وقد انتفع الأُمراء اللبنانيين ورجال الدين الموارنة من هؤلاء الخريجين وكان منهم من شارك

في الحياة السياسية اللبنانية ويقف على رأسهم : ابن سباط([1]) وصالح بن يحيى(ت 850 هـ / 1446م) ([2]) الذين كتبوا عن تاريخ الأُمراء التنوخيين في مقاطعة الغرب وأَحمد الخالدي الصفدي الذي كتب عن تاريخ الأَمير فخر الدين المعني الثاني، وكانت المناطق الجنوبية من لبنان أكثر عناية بالبحوث التأريخية منها في الشمال قبل القرن الثامن عشر باستثناءات نادرة منها على سبيل المثال انطونيوس أبو خطار العينطوري الذي كان يعد واحدًا من أبرز مشايخ مقاطعة بشرّى وقد ضمن كتابه

---

(1) هو حمزة ابن الفقيه أحمد ابن سباط عمر بن صالح ابن السّلطان ابن أبي المواهب. يُرجّح أنّه وُلد في النّصف الثّاني من القرن التّاسع الهجريّ/ الخامس عشر الميلاديّ، في بلدة "عبيه"، وقد عُرف موطنه بإقليم الغرب، وعُرف هو باسم ابن سباط "الغربيّ". نشأ وترعرع في عبيه، ويُرجّح أنّه اقتصر في دراسته على أبيه (ت. عام 887 هـ.) الّذي كان فقيهًا ومعلّمًا، وكان إمامًا للأمير السّيّد جمال الدّين عبد الله التّنوخيّ، قدّس الله سرّه، وخطيب جامع البلد، ورئيس مؤذّني المدن. نشأ مُحبًّا للتّاريخ والآثار والأدب، وكان ينظم الشّعر أيضًا، فجمع مكتبة لا بأس بها، ضمّت مجموعة من أمهّات المصادر التّاريخيّة الّتي اعتمدها في تصنيف كتابه صِدْق الأخبار المعروف بـِ–تاريخ ابن سباط، وهي في معظمها مصادر معروفة ومتداولة، صرّح عنها في عدّة مواضع من كتابه، نذكر منها: وَفَيات الأعيان، وسمّاه تاريخ القاضي شمس الدّين ابن خلّكان، وَ–المختصر في أخبار البشر، لأبي الفداء، وَ–الكامل في التّاريخ، لابن الأثير، والكثير غيرها. كما كان ينقل عن مصادر أُخرى، مثل: دُوَل الإسلام، للذّهبيّ، وَ–السّلوك، للمقريزيّ، من دون التّصريح بهما، حيث وُجد عند تحقيق كتابه، صِدْق الأخبار، أنّه يذكر وقائع معيّنة لم يذكرها سوى هذين المصدرين، (ينظر : تاريخ ابن سباط، ج1، جروس بروس، (بيروت : 1993) .

(2) صالح بن يحيى بن صالح بن الحسين التنوخي، من بني أمير الغرب مؤرخ، كان له علم بالنجوم والأسطرلاب. من أهل بيروت. كان في أواسط القرن التاسع للهجرة. له كتاب (تاريخ بيروت) كتبه بلغة أقرب الى العامية. ويظهر أنه كان قائدا بحريا، فقد ذكر في كتابه أنه كان مقدّما على سفينة ذهبت مع سفن أخرى مشحونة بالرجال لغزو قبرس (سنة 828 هـ فكانت بينهم وبين الفرنج معارك ومناوشات وهزموا (ابرنس كند اسطبل) (Connetable) أمير الجيوش، وهو أخو ملك قبرس، وعادوا إلى مصر فأنعم عليه سلطانها برسباي بمائتي دينار ذهبا، وأكرمه الأمير أركماس الظاهري، فأنزله في بيته، وأهدى إليه حجرة عربية وقباء سنجاب من ملابسه. وذكر أنه قام برحلة أخرى من نوعها. ووصفه المؤرخ ابن سباط بأنه (صاحب الغزوات) وله كتاب في (سيرة الإمام الأوزاعي) 1 (ينظر :الزركلي، الاعلام، ج3، ص198.)

أُصول العائلات اللبنانية وتاريخ الكنيسة المارونية ومعلومات ثمينة تتعلق بتاريخ المقاطعات السياسية الشمالية ومن ذلك على سبيل المثال ذكره لتفاصيل مهمة عن رحيل اسرة ال حمادة الشيعية عن لبنان الشمالي وكتب معلومات قيمة عن تأريخ الصراعات بين الأُمراء الشهابيين وكان يبدو عليه انحيازه إِلى جانب أبناء الأَمير يوسف الشهابي بمواجهة الأَمير بشير الثاني وقد قتل أبو خطار عام 1821، وهكذا يؤرخ البرت حوراني إِلى جهود المؤرخين اللبنانيين وتحديدًا الموارنة ودورهم في كتابة تاريخ لبنان ونسج طبيعة الحياة الاجتماعية لها، فاراد ان يبرز الأَثر الأُوروبيّ في سلوك المؤرخين اللبنانيين في التأريخ للبنان .

الخلاصة:

ومَّما سبق يتضح جملة من الأُمور التي ناقشها البحث حول رؤية المستشرق البرت حوراني تجاه قضايا التحديث في العالم العربي؛ إِذ أَظهر البحث أَنَّ البعد الأُوروبيّ كان واضحًا في مشروع التحديث العربي، إِنَّ بدايات هذا المشروع بحسب ما أَوضح البرت حوراني كانت لتحقيق غايات عسكرية ودفاعية وأَمنيَّة بعد الهزائم المتكررة التي مني بها القوات العثمانية فكان لا بد من بحث عن مخرج لهذا المأزق الذي بات ينهش في جسد الدولة العثمانية فكان الطريق الذي قرر الحكام العثمانيون السير فيه هو مواكب التقدم التقني والعلمي عند الأُوربيين فبدأوا بتبني العلوم العسكرية الأُوروبيّة والاستفادة من خبرات مدرسيهم وعلمائهم ومهندسيهم من أَجل تطوير وتحديث المنظومة الأَمنية الدفاعية العثمانية لكن حوراني بين أَنَّ هذا الاقتباس كان بمثاب الجرعة الأُولى التي تبعتها جرعات عديدة في شتى المجالات الإِنسانيَّة.

ثم ان حوراني بدأ يناقش تجارب نهضوية عربية حديثة كانت متأثرة بشكل كبير في النموذج الأُوروبيّ وتمثلت هذه التجربة بمصر وتونس؛ إِذ عُدَّت هاتان التجربتان من التجارب الرائدة في عمليات التحديث في المجتمع والمؤسسات الحاكمة في كلا الولايتين لذلك خصص لهما البرت حوراني مكانة مهمة في كتاباته وناقش الأَبعاد الأُوربية المختلفة في نشأتها ونهضتها في حين اغفل وربما تغافل عن ذكر التحديثات التي طرأت على بقية الولايات العربية كالولايات العراقية أَو الحجاز أَو غيرها، ومع ذلك فغن البرت حوراني كان يتمتع بنظرة ثاقبة في تحليل ابعاد التحولات الكبيرة التي بدأت تشهدها الولايات

العربية واثبت بالحجة الدور الأُوروبيّ الكبير في التأثير على مجمل الحياة العامة في الولايات العربية سواء على المستوى الايجابي أَو على المستوى السلبي ونبه إِلى خطورة بعض هذه التأثيرات على السلم الأَهلي الداخلي كما هو الحال بالنسبة إِلى الصراع الداخلي في جبل لبنان بين الموارنة والدروز إِذ لم يخف حوراني من الأَثر الخارجي الكبير الذي أَدَّته القوى الكرى ولاسيَّما بريطانيا وفرنسا في تأجيج هذا الصراع والانفتاح الكبير على الخارج بحيث بات التأثير الأُوربي سياسياً بالدرجة الاساس ولم ينتهي حتى نشأ نظام اداري خاص في لبنان تحت رعاية اوروبية تمثل بنظام المتصرفية في جبل لبنان عام 1861 .

ويرى حوراني أَنَّ من الأَفضل أَن ننظر إِلى تاريخ الشرق الأَوسط في هذه المرحلة ضمن عملية تأثير متبادل معقد: منها رغبة المجتمعات القديمة المستقرة في إِعادة بناء نفسها محتفظة بما هو من خصائصها مع العمل على التغييرات على إدخال التغييرات الضرورية لكي تبقى حية في عالم حديث منظم أكثر فأكثر على أسس أخرى؛ إِذ مراكز القوة العالمية ظلت طويلاً ولا تزال خارج الشرق الأَوسط .

References

- Sayyar Al-Jamil, “**On the Tenth Anniversary of Professor Albert Hourani: A Man - Minorities of the Middle East”** Al-Hiwar Al-Motadmin Magazine - Issue: 717 - 18/1/2004 Article published on the link: https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp\
- Issa Fattouh, **The Arabic Encyclopedia** (Beirut: 2016),
- Hourani and others, (2016) **The Modern Middle East, orbits for research and publishing**, Cairo:
- Andrew Roberts, **Napoleon: A Life. Penguin Group**, U.K: 2014 , Introduction.
- Hourani (1977) **Arab Thought in the Renaissance Era**, translated by Karim Azqoul, Dar Al-Nahar; Beirut.
- Dar Al-Kutub Al-Ilmiyyah, (Beirut: 2013).

- Muhammad Emara: Ali Mubarak, Historian and Architect of Al-Omran - Dar Al-Mustaqbal Al-Arabi - (Cairo - 1984).
- Al-Kubra Al-Amiri Press (1998) **Conciliatory Plans**: Cairo.
- An Overview of Egypt, Translated by: Muhammad Masoud, Dar al-Kutub and Documents, (Cairo: 2011).
- Ibrahim Awadin: Among the Notables of Al-Azhar: Sheikh Hussein Al-Marsafi. Al-Azhar Magazine, Sunnah 53, Issue 8, Shaaban 1401 AH).
- Philip and Farid El-Khazen**, Collection of Political Editors and International Negotiations on Syria and Lebanon** (Jounieh: 1910), part 1.
- Mahmoud Salih Saeed (2009) **The Lebanese Question, Mount Lebanon in European Politics,** Dar Al Mithaq, Mosul: 66.
- The Religious, Political, and Civilizational History of the Maronites
- A Study in Social and Political History, Zayed Center for Heritage and Culture, (Al-Ain: 2011).
- Ibn Sibat's History 1, Gross Bruce, (Beirut: 1993).
- Al-Zarkali, Al-Alam, Part 3.

The European Influence on Modern Arab Thought
Reading the Writings of the Orientalist Albert Houran

Mahmoud Saleh Said *

Abstract

This research discusses the subject of the European influence in modern Arab thought through reading in a book by the British orientalist Albert Hourani, who was able through a group of his

* **Prof/ Department of History / College of Arts / University of Mosul.**

books to bet on the value of European influence in modern Arab thought and formulate its most prominent features, and in this research an attempt to highlight the most prominent stations that Hourani addressed it through his writings on monitoring the European impact on modern Arab thought and the project of the modern Arab renaissance, which was led by a group of men of thought, politics, science, language and knowledge by relying on his most prominent books in this regard, which is still considered one of, uh, works that dealt with modern Arab thought and the nature of The social transformations brought about by European thought in modern Arab history.

Key words: Albert Hourani, Modern Arab Thought, European Impact, Modern Arab Renaissance.